كيف أصبحت بلاد البربر، المغرب العربي؟،

ترجمة لمقال: قابريال كامبس (Gabriel CAMPS)* :

COMMENT LA BERBÉRIE EST DEVENUE LE MAGHREB ARABE ?.

د.محمد الحبيب بشاري د. موسى هواري

قسم التاريخ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

الملخص:

هذا البحث هو ترجمة لمقال بعنوان:" كيف أصبحت بلاد البربر، المغرب العربي؟"،لمؤلفه المؤرخ الفرنسي قابريل كامبس(Gabriel CAMPS 1927-2002) ، وقد صدر في revue de l'occident musulman et de la méditerranée، سنة 1983، وهو مقالٌ مهمٌ يحاول فيه صاحبه تقديم أسباب وتفسيرات للتعريب الذي عرفته بلدان المغرب العربي، وفق وجهة نظر المدرسة الفرنسية (الاستعمارية)، والغرض من ترجمة هذا المقال هو تقديم رؤية المؤرخين الفرنسيين التي تختلف تماما عن نظرة المؤرخ المحلي، إلى القارئ بالعربية، تعميما للفائدة، ويقوم هذا العمل البحث على ترجمة النص دون تعليقٍ أو إضافةٍ، مع الإبقاء على بعض الهوامش والإحالات الأصلية، التي ترجمنا منها ما يجب ترجمته، وحاولنا المحافظة على أفكار المؤلف قدر المستطاع وهذا بكتابة بعض المصطلحات بلغتها الأصلية، لأنّ ترجمتها لا تقدم معنى دقيقاً، كما تجنبنا الحكم على أفكار المؤلف وتركنا ذلك للقارئ وحده.

الكلمات الدالة : البربر ، المغرب ، كبريال كامبس، الغرب الاسلامي

Summary:

This research is a translation of an article entitled : The situation of the erberes country , the western Arab written by : the French historian Gabriel Camps (1927-2002) , The article was published in a magazine: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,Year 1983 Volume 35 Number 1, .It is an interesting article in which the author try to present the factors and interpretation about the Arabic project of the Maghreb countries . the Author reveals the french colonial school view about this operation . The aim of this translation is to enable the Arab readers to have a vision regarding this issue , In order to achieve that, we have translated the article without any comment or change , as we preserved the references with a translated resources to respect the readers deductions and statements.

1. كيف أصبحت بلاد البربر، المغرب العربي؟:

بلدان شمال إفريقيا هي اليوم دولٌ مسلمةٌ، تعلن انتماءها المزدوج: للمجتمع الإسلامي، والعالم العربي، وهي محقّةٌ في ذلك، غير أن تلك الدول ورثت بعد تقلباتٍ عديدةٍ إفريقية (l'Afrique) التي كانت في أواخر العصر القديم تابعة بكل تأكيد

للعالم المسيحي، والمجموعة اللاتينية، ومن الغريب أنَّ هذا التحول الثقافي الذي يمكن اعتباره جذرياً لم يُرفَق بأيِّ تغييرٍ إثنيٍ هام : إنّهم نفس الرجال، هؤلاء البربر الذين كانوا يعتبرون أنفسهم روماناً، و صاروا اليوم يشعرون أنهم عرب .

كيف يفسّر هذا التحول الذي يظهر عميقاً و بنسبٍ مختلفةٍ في دولٍ دون غيرها ؟ لأنّ هناك في بعض الدول مجموعاتٌ بشريةٌ كبيرةٌ لا تعتبر نفسها عربيةً بالمرّة، وتعلن ثقافتها البربرية رغم أنها مسلمةٌ إسلاماً تاماً[1] .

يجب التمييز في المقام الأول بين مفهومين متقاربين جداً، وهما الإسلام والعروبة، أحدهما ديني والآخر إثني-اجتماعي، فالإسلام ظهر عند العرب ، الذين نشروه في البداية، رغم وجود سكان عرب أو مُعرَّبين حافظوا على مسيحيتهم في الشرق الأدنى ، و إلى جانبهم عشرات الملايين من المسلمين ليسوا عرباً و لم يتعرّبوا (أفارقة ، أتراك ، إيرانيين ، أفغان ، باكستانيين ، اندونيسيين...).

كان يمكن أن يُسْلم البربر مثل الفرس أو الأتراك، و أن يحافظوا على لغتهم و تنظيمهم الاجتماعي وثقافتهم؛ ويبدو أن ذلك سيكون أسهل، خاصةً أنهم أكثر عدداً من الشعوب التي احتفظت بهويتها داخل المجموعة المسلمة، كما كانت بلادهم أكثر بعداً عن مهد الإسلام من بلاد تلك الشعوب.

ومن جهة أخرى كيف نفسر أن المقاطعات الرومانية في إفريقيا، التي مُسِّحَت(évangélisées) بنفس الوتيرة التي مُسِّحَتْ بها مقاطعات الإمبراطورية الأخرى، والتي كانت تملك كنائس قوية ، تحولت كليةً إلى الإسلام في حين بقي

سكانٌ مسيحيون على أبواب شبه الجزيرة العربية، مثل الأقباط في بلاد النيل ، والمارونيين في لبنان، والنسطوريين و اليعقوبيين في سوريا و العراق ؟.

للإجابة على هذه الأسئلة، يجب على المؤرخ أن يعود إلى ما قبل حدوث الغزو العربي في القرن السابع ميلادي ، هذا الغزو الذي سمح بنشر الإسلام في المنطقة، لكنه لم يكن السبب الفاصل في تعريبها، فالتعريب الذي لم يتحقق إلاّ بعد عدة قرونٍ من ذلك ومازال لم ينته بعد؛ له أسبابٌ أعمق من ذلك بكثير؛ في الواقع نحن نشهد منذ نهاية الإمبراطورية الرُّومانية سناريو، شبيه لما في الصورة التنبؤية.

2. نهاية العالم:

سيطرت روما على إفريقيا(l'Afrique)، وأنشأت بها مقاطعات متمثلة في إفريقية (Africa) التي قُسِّمَت إلى مقاطعات:المزاق (Byzacene)، وزغوان (Zeugitane)، ونوميديا التي اقتطعت منها طرابلس والموريطانيات السطايفية والقيصرية والطنجية. لقد "رُومنت(Romanisées)هذه المقاطعات بدرجاتٍ متفاوتةٍ، في الحقيقة كان هناك إفريقيتان رومانيتان؛ في الشرق مقاطعة إفريقية وامتدادها العسكري نوميديا، وكانتا كثيرتي السكان، مزدهرتين ومتحضرتين بشكل واسعٍ، أمّا في الغرب فكانت الموريطانيات، مقاطعاتٍ من الدَّرجة الثانية، متحضرةً في الأراضي الزراعية التّلّية، و قد امتدَّ وجودها في نوميديا، وخاصةً في طرابلس حتى قلب الصحراء، تمركزت بها، بعد القرن الأول(الميلادي)، ثورات البربر التي هزّت إفريقيا، رغم ذلك نجحت روما ؛ و لمدة أربعة قرونٍ؛ في مراقبة بدو الاستبس الصغار، حيث كانت تراقب وتنظم تحركاتهم في اتجاه التل والجهات المستصلحة بفضل نظام اللِّيمس المعقد، والذي

كان يضمُّ خنادقَ و أسواراً تغلِق المعابر المرتفعة، وأبراج ترصُّدٍ، وضيعاتٍ محصّنة، وحامياتٍ مقيمةً في حصونٍ، وقد وجد(المؤرخ والأثري الفرنسي) رونيه روبيفا (R.Rebuffat)الذي نقّب في أحد معسكرات هذا النظام بـ"نجم / Ngem " (قرب طرابلس) أرشيفاً متواضعاً لهذا المركز، تمثّل في قطعٍ فخاريةٍ بسيطةٍ (Ostraca) سجُّل عليها في بعض الكلمات أحداثٌ منها :"أُرسل فيلقي (Légionnaire) في مهمة لدى الغرامنتيين"، ومنها أيضا:"عبور بعض الغرامنتيين يقودون أربع أحمرة (Garamantes ducentesasinos IV...) " .

ابتداء من القرن الثاني، كان الغرامنتيون يستوردون منتجات رومانية مثل: (الجِرار، الأواني الزجاجية، والمجوهرات)، وقد وصلت هذه المنتجات حتى قصورهم (Ksour) البعيدة بفزان ، كما كان المهندسون الرومان يبنون أضرحةً للأسر الأميرية بغرامة (Garama/Djerma) وكان جنود الفرق العسكرية و الوحدات المساعدة يقومون بدورياتٍ على طول المسارات المجهزة بخزانات ومراكز عسكرية، تنتظم حولها مراكز فلاحيةٌ صغيرةٌ.

انهارت السيطرة الرومانية؛ ثلاثة قرونٍ بعد ذلك؛ و تحولت هذه الصحراء الهادئة إلى فوهة جحيم، يندفع منها ؛ في اتجاه المقاطعات القديمة؛ محاربون شرسون، وهم لفاتاي (Levathae) هؤلاء هم أنفسهم الذين يسميهم الكتاب العرب " لواتة " الذين ينتمون إلى مجموعة البتر. جاء هؤلاء البدو الجمّالون من الشرق، و دخلوا إلى الأراضي الجنوبية للمُزاق (البيزاسيوم / Byzacene) ونوميديا، التي استُصلِحَت بمجهودٍ مضنٍ استمر لقرونٍ، وتسبَّبُوا في تراجع الزراعة الدائمة ثم اختفائها، خاصةً

مزارع الزيتون التي أفلست مَعَاصِرُها، تلك المعاصر المنتشرة آثارها اليوم في مناطق الاستبس المقفرة(2)، و كان لظهور حياة البداوة والترحال في إفريقيا « المفيدة » (L'Afrique utile) عواقب غير محسوبةٍ، فقد غيَّر نمط الحياة في هذه المنطقة بصفةٍ دائمةٍ، ومهَّد لحركة التعريب التي ستأتي فيما بعد.

أمَّا الحدث الثاني الذي غير البنية الاجتماعية للعالم الإفريقي(مجتمع شمال إفريقيا) فهو الغزو العربي الذي سهّله ضعف البيزنطيين الذين دمّروا المملكة الوندالية، واستعادوا جزءًا من إفريقيا (سنة533م)، لكن إفريقيا البيزنطية لم تعد إفريقيا الرومانية، فقد كان هذا البلد التعيس فريسةً للفوضى منذ قرنين، وكانت كلُّ عوامل الاختلال والدّمار الاقتصادي مجتمعةً، فمنذ نزول الوندال(سنة429م) أفلت أكبر جزءٍ من المقاطعات القديمة من إدارة الدولة التي ورثت روما، حيث لم تكن مملكة الوندال في إفريقيا تمتد إلا على تونس الحالية وجزءٍ صغير من الجزائر الشرقية، و التي يحدها من الجنوب الأوراس، و من الشرق خط طول قسنطينة.

دخل البدو الجمّالون الزناتيون بقيادة كباوون(Cabaon)(3) إلى بيزاسيوم(المزاق) منذ نهاية حكم ترساموند (Thrasamond) في حوالي 520 م، وابتداء من هذا التاريخ اضطر الوندال ثم البيزنطيون إلى التصدي لتسرب الغزاة باستمرارٍ .

وتروي ملحمة آخر الكتاب الأفارقة اللاتين "كوربوس" (Corripus) "جوهانيد (La Johannide)، المعارك التي اضطر قائد القوات البيزنطية جون تروغليتا (Jean Troglita) لخوضها ضد هؤلاء الأعداء الشرسين حلفاء موريي الداخل، هؤلاء البربر "لواتة"(Levathae /Laguantan)، الذين بقوا وثنيين، كانوا

يعبدون إلهًا ممثلاً في ثورٍ يدعى غورزيل(Gurzil)، وإلهاً محارباً يدعى سنيفر (Snifere)[4] ، و كانت إبلهم تخيف الفرسان البيزنطيين، وهي منظمةٌ في شكل دائرةٍ لتحمي نساءهم و أطفالهم الذين يتبعونهم في تنقلاتهم.

أمَّا ما بقي من أراضي إفريقية، أو تلك التي أطلق عليها كريستيان كورتوا (Ch.Courtois) اسم «إفريقيا المنسية »، والتي يقابلها بصفة عامة المقاطعات الموريطانية، فإننا لا نعرف عنها خلال هذه الفترة التي تمتد لمدة قرنين إلا أسماء زعماءٍ و عددًا قليلًا من المعالم الجنائزية(جدّار قرب سعيدة، غور، مكناس) ، والنقوش المشهورة لماستيس(Masties) الذي أعلن نفسه إمبراطورا بأريس (الأوراس)، و ماسونة (Masuna)" ملك القبائل المورية و الرومان في ألتافا(Altava/أولاد ميمون) بالقطاع الوهراني، والمستنتج من المعلومات المحدودة التي وصلتنا عن طريق بعض المؤرخين أمثال بروكوب (Procope)، ومن محتوى النقوش نفسها، أن الخوف وانعدام الأمن كان الغالب في هذه الجهات « المحررة »[5] .

كما تعد الخلافات الدينية من العوامل الأخرى للاضطرابات في المنطقة، والتي لم تكن أقل عنفًا عند مسيحيي إفريقيا منها عند مسيحيي الشرق، فقد ضعُفت الكنيسة التي واجهت صعوبةً في مقاومة الانشقاق الدوناتي في مملكة الوندال، بسبب الاضطهاد، لأنَّ الأريوسية (l'arianisme) أصبحت دين الدولة، مع أنَّ الأرثودكسية انتصرت من جديد في عهد الملك الوندالي هيلدريك (Hilderic)، وتبرز قوائم الأسقفيات لمجمع سنة 525م، مدى معاناة الكنيسة الإفريقية خلال القرن

الّذي تلا وفاة القديس أوغسطين، ليس فقط باختفاء العديد من الأسقفيات كما يظهر، حيث أضيف إلى الأحداث الإقليمية والانغلاق ، تصدع الدولة الرومانية .

إن الاستعادة (La reconquête) البيزنطية للمنطقة، كانت أكثر كارثيةً في المجال الديني [6]، حيث أعادت إدخال صراعاتٍ جديدةٍ إلى إفريقية حول طبيعة المسيح: فقد دُشّن الخلاف حول الطبيعة الواحدة للمسيح(Monophysisme) وخلاف الفصول الثلاثة في ظل حكم الإمبراطور جوستينيان المرحلة البيزنطية في إفريقية ، كما انتهت هذه المرحلة بفشل محاولة الإمبراطور هرقل (Heraclius) التوفيق بين المذاهب، باقتراحه المونوثيلية (Monothélisme) (المشيئة الواحدة للمسيح أو القوة الفاعلة الواحدة للمسيح) ، والتي اعتبرت بدورها هرطقةً جديدة .

في نفس الوقت الذي بدأ فيه الغزو العربي كانت إفريقيا المسيحية تُمَزّق مرةً أخرى، نتيجة مبادرة الإمبراطور قسطنطين الثاني(Constant II /648 م) المتعلقة بطبيعة المسيح .

تزامن كل هذا مع تضاعف التعقيدات الاجتماعية، و حتى الإثنية للبلد، فبالإضافة إلى الرومان الأفارقة سكان المدن والأرياف، التي تقع أحيانا في أقصى الجنوب مثل المجتمعات الفلاحية التي عرّفتنا بها « ألواح ألبرتيني » ، الأرشيف التوثيقي المسجل على خشب الأرز، و الذي عثر عليه على بعد مسافة 100 كلم جنوب تبسة[7] ، والموريين غير المرَوْمَنين (non romanisés)، والمنحدرين من البربر الأوائل، نجد البدو الرحل"الزناتيين" و الأغوانتان (Laguantan) ومنافسيهم، وبقايا شعب الوندال و جنود الحملات العسكرية، والإداريين البيزنطيين الشرقيين. فأصبح هذا المجتمع يزداد كل

يومٍ انقساما وانفصالاً عن بعضه، في بلدٍ تختفي فيه حتى فكرة الدولة، و بالتالي ظهر الغزاة العرب في منتصف القرن السابع ميلادي في بلدٍ مفككٍ ، مقفرٍ و ممزقٍ.

3. الغزو العربي :

نعرف أن الغزو العربي لم يكن محاولة استعمارٍ بمعنى عملية استيطان(Peuplement)، فهو يظهر كسلسلةٍ من العمليات العسكرية البحتة، التي يمتزج فيها حب الكسب مع روح التبشير، كما تُبرزه الصورة المنتشرة بكثرةٍ في الكتب المدرسية، كما أن هذا الغزو لم يكن نتيجة أعمالٍ بطوليةٍ تُزيل كلَّ معارضةٍ بحدّ السيف.

توفي الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سنة 632م، وبعد ذلك بعشر سنوات، استولت قوات الخليفة على مصر وقورينايية (Cyrénaique)، (أنتابولوس/Antâbulus) وهي تحريف لكلمة بنتابوليس(Pentapolis) أو المدن الخمس، وفي سنة 643 م. دخلت إلى طرابلس بقيادة عمرو بن العاص.

وتحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري حاكم مصر، وُجّهت حملة نحو أطراف إفريقية (l'Ifriqîya) وهي تحريف عربي للاسم القديم لإفريقيا(Africa)، التي كانت ضحية علاقة متشنجة بين البيزنطيين و البربر الثائرين، و بين البيزنطيين أنفسهم، وقد كشفت هذه العملية عن ثراء البلد وفي نفس الوقت عن ضُعفه، ممَّا أشعل شهيّة مُتّقدَةً لدى العرب، فالمؤرخ النُّويري وصف السُّهولة التي جنّد بها جيشٌ صغيرٌ مكونٌ من عناصر وفّرتها أغلب القبائل العربية ، انطلقت من المدينة في أكتوبر سنة 647 م. هذه الوحدة العسكرية التي لا يمكن أن يتجاوز عدد رجالها 5000 ،

لكن أضاف إليها ابن أبي سرح في مصر عدداً من المحاربين الذين جندهم هناك، فارتفع عدد المقاتلين المسلمين إلى 20000 رجل.

حدث الصدام الحاسم مع الروم (البيزنطيين) الذين كان يقودهم البطريق جرجير(Grégoire) قرب سوفيتولا (Suffetula/سبيطلة) بتونس، و قد قُتِل جرجير، لكن العرب انسحبوا راضين سنة 648م، بعد أن نهبوا البلد السهلي، و حصلوا على غنيمةٍ ماليةٍ مرتفعةٍ من مدن المزاق، حيث لم يكن لهذه الحملة التي دامت أربعة عشر شهرا هدفٌ آخرٌ.

لم تُباشَر عملية الفتح الحقيقية إلا تحت حكم الخليفة معاوية، الذي عهد لمعاوية بن حديج قيادة جيشٍ جديدٍ سنة 666م.، ويظهر أن عقبة أسس ثلاث سنوات بعد ذلك مدينة القيروان(8)، أول مدينةٍ إسلاميةٍ بالمغرب حسب الروايات التي وصلتنا بصيغٍ متعددةٍ من طرف الكُتَّاب العرب، وقد ضاعف عقبة خلال عهدته الثانية الهجمات على المناطق الغربية، فاستولى على مدنٍ مهمةٍ مثل لمباز (Lambèse) التي كانت مقراً للفرقة الأغسطية الثالثة، وعاصمة نوميديا الرومانية، توجه بعدها نحو تيهرت قرب تيارت المعاصرة، ثم وصل إلى طنجة، حيث وصف له المدعو يوليان(جوليانوس) بربر السوس (جنوب المغرب الأقصى) وصفاً سيئاً جداً بقوله : « إنهم شعب لا دينٍ لهم، يأكلون الميتة، ويشربون دم حيواناتهم، يعيشون كالحيوانات، لأنهم لا يؤمنون بالله و لا يعرفونه تماما»، فارتكب عقبة في حقهم مجزرةً استثنائيةً واستولى على نساءهم اللَّواتي كنَّ ذوات جمالٍ لا يُضاهى، ثم دخل المحيط على ظهر حصانه و أشهد الله على " أنه لم يعد هناك البتة أعداءٌ للدين ليحاربهم و لا كفارٌ ليَقتُلُهم"(9).

تبقى هذه الرواية أسطوريةً في جزءٍ منها، بينما تذهب أخرى إلى القول أنَّ عقبة وصل حتى أطراف فزان قبل أن ينتقل للحرب في أقصى الغرب، و هي تُقَلِّل من المقاومة التي واجهتها حملاته، المهم أنَّ حملة عقبة هذه انتهت بكارثةٍ هدَّدت الهيمنة العربية على إفريقية لمدّة خمس سنوات، فقد أعطى إشارة الثورة القائد البربري كسيلة الذي أسلم قبل ذلك؛ وهو من قبيلة "أَوْرَبَة" التابعة لفرع البرانس؛ واستطاع أن يسحق كتيبة عقبة في طريق عودته من هذه الحملة بجنوب الأوراس[10]، فقتله بتهودة قرب المدينة التي تحمل اسمه، و تحوي ضريحه:"سيدي عقبة"، بعدها سار كسيلة نحو القيروان واستولى عليها، وانسحب ما بقي من جيش المسلمين حتى مدينة قوريناية (Cyrénaique)، منذ ذلك الوقت تتابعت الغزوات و الحملات العسكرية على إفريقية كلّ سنةٍ تقريباً.

مات كسيلة سنة 686م، ولم تُنتَزع قرطاجة من طرف المسلمين إلا سنة 693 م، وتأسست مدينة تونس سنة 698م، بينما قادت المقاومة لمدة بضع سنوات امرأة من قبيلة جراوة، وهي إحدى قبائل زناتة، سيدة الأوراس، تدعى دهية (Dihya) وتعرف بالكنية التي أعطاها إياها العرب و هي الكاهنة (العرافة)، ويمكن اعتبار تاريخ وفاتها سنة 700م[11]، نهايةً للمقاومة البربرية المسلحة ضد للعرب .

عندما عبر طارق سنة 711م، المضيق الذي يحمل اسمه (جبل طارق) لغزو اسبانيا، كان جيشه متكونا أساساً من وحداتٍ بربريةٍ و موريةٍ (Maures)، باختصار كان الغزاة العرب قليلون، لكن بواسل، كما أنَّهم لم يجدوا أمامهم دولةٍ مستعدةٍ للتصدي لغزوتهم ، وكلُّ ما واجهوه هو معارضين متتابعين: البطريق البيزنطي ثم الزعماء

البربر[12]، إماراتٌ بعد ممالك، وقبائلٌ بعد اتحادات، أمَّا السكان الرومان الأفارقة (Les Afariq)، المحبوسين داخل أسوار تلك المدن، فهم رغم كثرتهم لم يكن لديهم لا الإمكانيةٌ ولا الرغبةٌ في مقاومة هؤلاء الأسياد الجدد الذين أرسلهم الله لمدة طويلة. فالجزية التي فرضها عليهم العرب المتمثلة في الخراج، لم تكن أبدا بالنسبة إليهم أثقل ممّا كانت تطلبه إدارة الضرائب البيزنطية، وقد اعتُبر تحصيلها- في البداية على الأقل- مساهمةً استثنائيةً في مآسي الحرب أكثر منها ضريبةً دائمةً، أما بالنسبة للنهب و أخذ الغنائم من طرف فرسان الله، فإنهما لم يكونا أكثر ولا أقل إرهاقا عمّا كان ممارسا من طرف قبائل المور منذ قرنين. احتلت إفريقيا إذا؛ لكن كيف أسلمت ثم عُرّبت؟.

4. طريق الهداية :

ذكرنا سابقا أنه يجب التمييز بين الأسْلمة (l'islamisation) والتعريب (l'arabisation)، في الواقع تمت الأولى بوتيرةٍ أكثر سرعةً من الثانية، حيث أصبحت بلاد البربر مسلمةً في أقلّ من قرنين (القرنين 7-8م) في الوقت الذي لا تزال فيه حتى اليوم و بعد 13 قرناً من الغزوة الأولى غير معربةٍ كلياً .

كانت الأسْلمة (l'islamisation) وأُولى عمليات التعريب حضريةٍ[13]، فقد ترسّخت ديانة الغزاة في المدن القديمة التي زارها الدعاة (Missionnaires) المحاربون، ثم علماء الدين الرّحالة الُمتمَرِّسون على المناقشات الدينية، كما ساهم تأسيس مدنٍ جديدةٍ التي كانت مراكز دينيةً حقيقيةً، مثل مدينة القيروان أول مدينة إسلامية شيدت(سنة670 م) ومدينة فاس التي أسَّسها إدريس الثاني(سنة809 م) في ترسيخ الإسلام في طرفي البلاد بشكلٍ متينٍ.

كان اعتناق بربر الريف من صنهاجة أو زناتة للإسلام أكثر غموضاً، فقد كانوا في الحقيقة جاهزين إلى عقيدة التوحيد (Monothéisme) المطلق في الإسلام بسبب التطور الحديث للمسيحية، والتبشير اليهودي في وسط القبائل الرحل بالجنوب، بالإضافة إلى ذلك بدا الإسلام للأفارقة كما كان الشأن بالنسبة لمسيحي الشرق كبدعةٍ مسيحيةٍ (كانت البدع كثيرةً) أكثر منه ديانةً جديدةً، وهذا ما قد يفسر حركات الرّدة المتكررة، التي كانت مرتبطةً أيضا بالتقلبات السياسية(14) .

وقد ساهم اعتناق الزعماء المحليين (les chefs de fédérations) للإسلام؛ والذي كان في كثيرٍ من الأحيان؛ بدوافع سياسيةٍ أكثر منها إيمانيةً؛ في نشر الإسلام في أوساط الشعب، كما جلبت مشاركة الوحدات العسكرية البربرية بقيادة هؤلاء الزعماء في غزوات مربحةٍ باسم الإسلام، وبشكلٍ طبيعي الجنود البربر إلى اعتناق الإسلام.

كما يمكن أن يكون أخذ الرّهائن من بين أبناء الأمراء أو زعماء القبائل قد ساهم في تقدم الإسلام، حيث يعود الأطفال وقد أسلموا وتعربوا (islamisés et arabisés) إلى قبائلهم ليصبحوا قدوةً لغيرهم، لأنّهم عادوا مكللين بالهيبة التي تمنحها ثقافةٌ راقيةٌ.

وكان للدّعاة الخوارج الذين جاءوا من الشرق، فعاليةٌ حاسمةٌ في نشر الإسلام، رغم خطورة حركتهم على استقامة المعتقد الإسلامي في القرون الأولى لهذا الدين، ففي نفس الوقت الذي كانوا ينشرون فيه الإسلام بين القبائل، وخاصة الزناتية منها، حيث فَصُلوا جزءًا من البربر عن بقية المسلمين، وإذا كان انشقاق الخوارج قد تسبَّب مراتٍ عديدة

في أحداثٍ دمويةٍ ببلاد المغرب، فإنَّ له الفضل في محافظة أقليةٍ دينيةٍ لكن مثالية على إيمانها وزهدها وعاداتها؛ في كل المراحل؛ بما فيها المرحلة التي نتحدث عنها.

ظهر فيما بعد دعاةٌ آخرون ورحالةٌ كبارٌ: ومنهم الدعاة المكلفون بنشر المذهب الشيعي، ويجب القول أنَّ هؤلاء كانوا يتنقلون في مرحلةٍ يظهر لنا فيها الوضع في أوربا، كما هو الشأن في إفريقيا محكوماً بحياة المحتشدات بسبب انعدام الأمن، وكان رجال الدين يُسافرون كثيراً و بعيداً جداً، ليتعلَّمُوا على أيدي أشهر علماء الدين، فيضعون أنفسهم؛ طواعيةً؛ في خدمتهم حتى اليوم الذي يدركون فيه معارفهم و سلطتهم، ويُصبحون بدورهم مُعلِّمين مُطورين لتعاليم جديدة أحيانا، ومن أمثلة هؤلاء قصة محمد ابن تومرت(المهدي) مؤسس حركة الموحدين(1120 م)، التي كانت وراء ميلاد إمبراطورية كبيرة.

اعتمد الدُّعاة (les missionnaires) المسلمون على تقديم المثال الجيِّد لكسب قلوب السكان في المدن وفي الأرياف بصفةٍ خاصةٍ، حيث كان عليهم أن يُظهروا لهؤلاء المغاربة الذين كانت تقواهم دائماً عميقةً، ما هو المجتمع الحقيقي للمدافعين عن العقيدة .

يعتبر الرباط (Ribat) خير مثالٍ[15]، لأنّه كان في نفس الوقت مكان عبادةٍ ، و مقرَّ الحامية ومركز عملياتٍ ضد الكفار، أو الهراطقة (les hérétiques) . يمكن إقامة الرِّباط في أيّ مكانٍ على الساحل أو في الأراضي الدّاخلية مثل رباط "تازة"، وفي كل مكان يفرض الدفاع عن العقيدة .

كان رجال الدين-الجنود الذين يشغلون هذه الرباطات (Ribats) يتدرّبون على القتال ، ويتعلمون أصول الدين (Orthodoxie) الأكثر صرامة. ويُعدُّ القرن التاسع العصر الذَّهبي للرباطات (Ribats) في إفريقية، حيث تضاعف عدد هذه المؤسسات الدينية للأمراء الأغالبة من طرابلس إلى بنزرت، خاصةً على سواحل المزاق القديمة (Byzacene)، وأشهرها، رباط المنستير (يعتقد المسلمون أنَّ المرابطة فيه ثلاثة أيام تكفي لكسب الجنة)، الذي بُنِي سنة 796م، ورباط سوسة الذي بُني سنة 821 م، تمركزت آخر الرباطات في الطرف المقابل لبلاد المغرب على ساحل المحيط الأطلسي، لضمان الدفاع عن الإسلام في المجال العسكري، و في المجال الديني الخالص، في نفس الوقت ضد اللصوصً النورمان، و ضدَّ الهراطقة البرغواطيين (Bargwarta)، ومن الرباطات المتأخرة ذلك الذي أسسه السلطان الموحدي يعقوب المنصور، والذي سيصبح عاصمة المملكة الشريفية محتفظا باسم "الرباط"، وقد أكمل مع رباطات أصيلا(Arcila) في الشمال ، و آسفي(Safi) و كوز (Qoüz)، وخاصة رباط ماسة (Massat) في الجنوب خط الدفاع الساحلي للمغرب الأقصى.

هؤلاء المرابطون هم في نفس الوقت زهادٌ ورجال عبادةٍ، لكنَّهم يعرفون التحول عند الضرورة إلى مُصلحين مُتحمسين وفعالين، مثل أولئك الذين ينتمون إلى قبيلتي لمتونة(Lemtouna) وجزولة (Guezoula) الصنهاجيتين من الصحراء الغربية، حيث أسَّسوا بقيادة الشيخ عبد الله بن ياسين رباطاً في جزيرة سينغالية، في بداية القرن

الحادي عشر، وكانوا أصل الإمبراطورية المرابطية (l'empire Almoravide)، و التي يعود اسمها إلى تحريف إسباني لكلمة"المرابطون" .

لكن الرباط فقد خاصيته العسكرية في المناطق غير المهددة، وأصبح مقراً لرجال دينٍ محترمين جداً، لكن من المبالغة تشبيههم بالجماعات الدينية المسيحية، فقد تنظّمت في مراحل لاحقةٍ، بالاعتماد على مراكز دراسة العلوم الدينية ، تعرف بالزوايا ، التي تُعتبر وريثةً الرباطات القديمة ، اختلطت هذه الحركة الجديدة في أغلب الأحيان مع التصوف الشعبي، فكونت المرابطية (Maraboutisme)، و هو اشتقاق آخر من كلمة الرباط، وساهمت هذه الحركة الجديدة بشكلٍ كبيرٍ في إتمام أسْلمة الأرياف المغربية، مقابل تنازلاتٍ ثانويةٍ لبعض الممارسات السابقة للإسلام، و التي لا تمس بعقيدة المؤمن.

رغم كل هذه العوامل وُجدت مناطق من بلاد البربر لم يدخلها الإسلام إلا مؤخراً، ليس وسط المجموعات المتماسكة للمستقرين الجبليين، فهؤلاء لعبوا بسرعة – عكس ما هو متوقعٌ– دورًا مهمًا في الإسلام المغربي، مثل كتامة من بلاد القبائل الصغرى، ومصمودة من جبل الأطلس المغربي، بل عند البدو الرحل الكبار في الهوقار البعيد و الصحراء الجنوبية، ويبدو أنَّ الطوارق ؛إذا صدّقنا الرواية؛ عرفوا أسلمةً مبكرةً جداً، قام بها الصحابة (رفقاء النبي) منذ أيام الفتح الأولى، لكن هذه الأسْلمة إذا لم تكن أسطورية، لم يكن لها أية نتائج، لأنَّ العادات الوثنية استمرت قائمةً حتى أعاد الدُّعاة إدخال الإسلام إلى الهوقار، دون أن يُحقّقوا نتائج كبيرةً، حيث يظهر أنَّ الأسْلمة الحقيقية لم تتم إلا في القرنين 14 و15ميلاديين، ولا نزال نجد بلداً ناطقاً بالبربرية لم

يُسلِم أبدًا، وهو جُزر كناري التي بقي سكّانها الأوائل "الغوانش" (Guanches)[16]، وثنيين حتى غزو النورمانديين و الاسبان في القرنين 14 و 15ميلاديين.

لم تقض أسْلمة البربر مباشرةً على كل آثار المسيحية في إفريقيا، فالجغرافيون و الإخباريون العرب كانوا كتومين جداً بشأن بقاء كنائس إفريقية لبعض القرون بعد الغزو واعتناق البربر الإسلام بشكل مكثف ؟، حيث لم يهتم المؤرخون بهذا الموضوع إلا حديثاً.

كانت الممالك الرومانية–الإفريقية التي تكونت خلال الفترتين الوندالية والبيزنطية في أغلبها مسيحية، فالإمبراطور ماستيس (Masties) أعلن مسيحيته[17]، و كان ملك الأوكتامي (Ucutamani) الذين هم كتامة عند الكتاب العرب، يعتبر نفسه « خادم الرب » (Servus Dei)[18]، كما كان الحكام الذين بنوا الجدّارات (Djedar) الضخمة، وهي معالم جنائزية بجهة فرندة [19] كذلك مسيحيين، ومنهم على الأرجح ماسونة (Masuna) "ملك المور و الرومان " بموريطانيا في حوالي 508 م، و ماستيناس (Mastinas) وهو أمير موري آخر ، يحتمل أنه سك عملة في حوالي 533 م[20] ، ولم يَبقَ على الوثنية إلا بعض الزعماء الرُّحل مثل تيرْنا (Terna) الذي كان يعبد الثور غورزيل (Gurzil)[21]، فكلُّ شيءٍ إذن يُشير إلى أنَّ جزءاً كبيراً من السكان البربر القدماء الموجودين في المقاطعات القديمة للإمبراطورية الرومانية تنصروا في القرن السادس.

تركت المدن الأثرية أكبر عددٍ من الشهادات على ذلك، فلا يجب أن نستغرب من وجود: كنائس فسيحةٍ و عديدةٍ، مقابر، نقوشٌ جنائزيةٌ، وخاصة المجموعة الرائعة

لوليلي (فوليبليس /Volubilis) البعيدة، التي تُغطي الجزء الأول من القرن السابع (655/595م)، ونقيشة ألتافا (Altava) الأقدم قليلا (القرن5)، وكذلك نقيشات بوماريا (Pomaria/ تلمسان)، وألبولاي (Albulae)، و هي مدن كانت جزءاً من مملكة ماسونا، ولا يجب أن نستنتج أن السكان الحضر فقط أصبحوا مسيحيين، لأنَّ عدداً كبيراً من البلدات المتواضعة في نوميديا، التي لم تكن في الحقيقة إلا قرى كبيرةً تملك كنائسها، وهو ما تبرزه نصوصٌ ثمينةٌ مثل نص بيكلار(Jean de Biclar)[22]، الذي يعلن تنصّر قبائل بقيت وثنيةً مثل الماكورتاي (Maccuritae) في سنة 570 م.[23] . هل يجب أن نستغرب مِمَّا يُؤكده البكري من أنَّ البربر كانوا في الفترة البيزنطية يعتنقون الدين المسيحي؟.

إنَّ الإبقاء على طوائف مسيحيةٍ في أوج المرحلة الإسلامية، قروناً عديدةً بعد الغزو، أمرٌ لا يشك فيه اليوم، حيث تُضاف إلى النقوش المكتشفة (Epigraphiques)، مثل النقوش الجنائزية المشهورة للقيروان المؤرخة بالقرن الحادي عشر[24]، وتلك المتعلقة بالقبور المسيحية لعين زاره (Ain Zara) وإنجيلة (En Ngila) بطرابلس[25]، يُضاف إليها التعاليق على نصوصٍ ظلَّت حتى اليوم مهملةً، فقد أبرز لويكي (T. Lewiki) وجود طائفةٍ مسيحيةٍ كبيرةٍ بين الإباضيين، أولاً في عهد المملكة الرستمية بتيهرت، ثم بورقلة[26]، كما نعرف أسقفية كستيلية (Qastiliya) جنوب تونس، في حين تحتفظ دائرة الختم البابوية بمراسلاتٍ بين البابا غريغوار السابع مع أساقفةٍ أفارقة تعود إلى القرن العاشر[27]، و يعترف هادي إدريس (H.R.Idriss) بالإبقاء على الاحتفال بالأعياد المسيحية في إفريقية في

العهد الزيري[28]، ويذكّرنا دي فورغ (Ch.E.Dufourg) بالاعتماد على نص للبكري بوجود سكانٍ مسيحيين و كنيسةٍ بتلمسان في القرن العاشر، حتى أنَّه يقترح العثور على إشارةٍ لحج مسيحيٍ إلى الأربطة في المدينة المدمرة شرشال- قيصرية[29]، وقد ربط نفس الكاتب ؛ بحق؛ بقاء اللغة اللاتينية الإفريقية(اللاتيني–الأفَريق/ Al Al -latini Afarîq) مع بقاء المسيحية[30].

والظاهر أن اختفاء آخر طائفةٍ مسيحيةٍ كان في القرن الثاني عشر، أوأكثر من ذلك، ويبدو أنَّ هذا الانقراض يعود سببه إلى الاضطهاد أكثر منه إلى الاختفاء الطبيعي، فالخلفاء الموحدون كانوا غير متسامحين كليةً بعد الاستيلاء على تونس، فقد منح عبد المؤمن في سنة 1159م، اليهود و المسيحيين الاختيار بين اعتناق الإسلام أو الموت بالسيف، و قد تفاخر حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور في آخر القرن بعدم بقاء أي كنيسةٍ في دولته[31] .

5. آليات التعريب:

اتبع التعريب طرقٍ أخرى رغم أنَّه مُهِّد له بإجبارية نُطْق بعض الجملِ الأساسية (الشهادتان) عند اعتناق الإسلام. كانت عملية التَّعريب اللُّغوية والثقافية في المرحلة الأولى(من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر) حضرية أساسا. لذلك احتفظت الكثير من المدن المغربية القديمة، مثل:القيروان، تونس، تلمسان، و فاس، بلغةٍ كلاسيكيةٍ نوعاً ما، كذكرى لعملية التعريب الأولى، هذه العربية الحضرية التي تشبّعت بتركيباتٍ مختلفةٍ مستمدةٍ من البربر، استمرت قائمة حسب مارسي(W.Marçais) لدى الشيوخ من سكان الأرياف المستقرين، مثل سكان الساحل التونسي، أو المنطقة

الساحلية القسنطينية، وكذلك سكان ترارة (Traras) و جبالة (Jebala) في الريف الشرقي، مع العلم أن هذه الجهات الساحلية مثّلت بوابة العواصم الجهوية القديمة الْمُعرَّبة منذ زمنٍ طويلٍ، هذه الوضعية اللُّغوية، و كأنَّها تُعيد عملية التعريب الأولى(32).

في أماكن أخرى، اكتسح هذه اللغة القديمة -التي نجهل مدى انتشارها- لغةً أكثر شعبيةً، هي العربية البدوية التي تَبرُز نوعاً من الوحدة تمتد من الجنوب التونسي إلى وادي الذَّهب، مع الاتجاه نحو الشمال، بسهول الجزائر الوسطى و القطاع الوهراني و المغرب ، هذه العربية البدوية أُدخِلَت في القرن الحادي عشر من طرف القبائل الهلالية، لأنَّها في الحقيقة ، هي التي عرّبت جزءاً كبيراً من البربر.

ولفهم الوصول غير المنتظر لهذه القبائل العربية البدوية، يجب أن نعود إلى القرن العاشر، في الوقت الذي كانت تجري في المغرب الأوسط أولاً ثمَّ في إفريقية مغامرةٌ مدهشةٌ و معروفةٌ جيدًا، وهي وصول الفاطميين إلى الخلافة، و عندما كان البربر الزناتيون يَبسطون نفوذهم تدريجياً على السهول العليا.احتفظ البربر المحليون الصنهاجيون بالأراضي الجبلية للجزائر الوسطى و الشرقية ، في هذا الوقت استقبلت كُتَامة إحدى القبائل الصنهاجية التي كانت تتمركز منذ العصر الروماني في بلاد القبائل الصغرى(33) أحد المبشرين الشيعة، وهو أبو عبد الله(الشيعي) الذي كان يُبشّر بقدوم الإمام المهدي المنتظر المنحدر من عليٍ و فاطمة. استقر في البداية في تافروت (Tafrout) بمنطقة ميلة، حيث نظَّم مليشيا تضمُّ مُؤيّديه الأوائل، ثمَّ حوَّل إيقجان (Ikdjan) الواقعة شرق جبال البابور، إلى مركزٍ محصنٍ. لقد ظهر كإستراتيجي بارعٍ و قائدٍ فذٍ، إذ استولى على سطيف ثم بجاية، وقسنطينة، وفي مارس (909م)، أصبح

الشيعة سادة القيروان، وأعلنوا عبيد الله الفاطمي إماماً لدولتهم، وهو لا يزال أسيرا في الطرف الآخر من المغرب الأوسط بالتحديد في سجلماسة البعيدة، و قد حرَّرته حملة كُتامية بقيادة أبي عبد الله الذي لا يَكلُّ ؛ وأدخلته منتصراً إلى القيروان في ديسمبر (909م)، مدمّرا في طريقه إمارات الخوارج، ونجحت الأسرة الفاطمية المنحدرة من عبيد الله في وقتٍ ما في السيطرة على الجزء الأكبر من شمال إفريقيا، لكنَّ ثوراتٍ عنيفةٍ هزت البلاد، أخطرها كانت ثورة الخوارج التي قادها مخلد بن كيداد المعروف بأبي يزيد "« صاحب الحمار»"، لكن الفاطميين أنقِذوا مرةً أخرى بعد تدخل صنهاجيي المغرب الأوسط بقيادة زيري بن مناد، لذلك ترك الفاطميون بعد أن نجحوا في غزو مصر بمساعدة صنهاجة، وبعد أن أقاموا عاصمتهم الجديدة القاهرة (973م) حُكمَ المغرب لمساعدهم بلكين بن زيري ؛ بهذا القرار الذي يعتبر صائباً؛ تولَّت حكم البلاد سلالة بربرية.

حدثت في عهدها أسوأ كارثةٍ عرفها المغرب خلال مدة ثلاثة أجيالٍ، فقد قطع الزيريون روابط تبعيتهم للخليفة الفاطمي، وفي سنة (1045م)، تخلَّى المعز عن المذهب الشيعي الذي لم تقبله أغلبية رعيته، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي ببغداد، ولمعاقبة هذا الانشقاق قدّم "donna" الفاطميون المغرب لقبائل عربيةٍ كثيرة الشغب، نزحت من سوريا وشبه الجزيرة العربية، و استوطنت بسايس في صعيد مصر ، حيث عاشت حياة البداوة ، و قد ارتبطت بعض هذه القبائل بجدٍ مشتركٍ، هو: « هلال » ، ومنه جاء اسم: « الغزوة الهلالية » ، الذي صار يُطلق على هذه الهجرة الشرقية الجديدة نحو شمال إفريقيا.

دخل بنو هلال، الذين تبعهم بعد وقتٍ قصيرٍ"بنو سليم" إلى إفريقية سنة(1051م). في الحقيقة إنَّ إحصاء هذه القبائل وفروعها عمليةٌ طويلةٌ جداً، ولكن معروفةٌ نسبياً بفضل رواية ابن خلدون والتراث الشعبي القائم على الرواية الشفوية التي لا تزال حيةً حتى اليوم، وهي أغاني ملحميةٌ معروفة باسم: "تغريبة بني هلال"(مسيرة بني هلال نحو الغرب).

وجدت مجموعتان أساسيتان: الأولى متكونة من قبائل زغبة و أثبج و رياح و جشم و ربيعة وعدي، وهي تتصل ببني هلال، والمجموعة الثانية : تكونت من بني سليم، و قد أُضيف إلى هذه الأمواج من الغزاة، بعد بضع العشرات من السنين مجموعة من العرب اليمنيين، وهم: "المعقل" الذين اتبعوا طريقاً خاصةً بهم حيث توجهوا أكثر نحو الجنوب، فوصلوا إلى جنوب المغرب و الصحراء الغربية. ويبدو أنَّ قبائل يهوديةً بدويةً رافقت هؤلاء البدو، وساهمت في تقوية المجموعات اليهودية بالمغرب(34)، تلك المجموعات التي ينتمي أغلبها إلى أصل زناتي.

إنَّنا نُخطئ إذا تصورنا أن تلك القبائل العربية وصلت مثل جيشٍ زاحفٍ احتل الأرض بشكلٍ دقيقٍ، و خاض حرباً لا ترحم ضد الزيريين، ثم أبناء عمومتهم الحماديين الذين أسّسوا مملكةً متميزةً في الجزائر، كما أنَّه من الخطأ الاعتقاد بحدوث صدامٍ شاملٍ أو نزاعٍ ذي طابعٍ عرقيٍ عنصريٍ أو وطني بين العرب الغزاة والبربر، فالقبائل التي دخلت المغرب احتلت الأراضي المفتوحة وكانت تجمع قواتِها للاستيلاء على المدن التي كانت تنهبها بشكلٍ منهجي، ثم تتفرق من جديدٍ ناقلة النهب والخراب بعيداً.

لم يتردد أمراء البربر الزيريون والحماديون، وبعد ذلك الموحدون ثمَّ المرينيون في استعمال القوة العسكرية التي كانت دائماً متوفرةً، و المتكوَّنة من هؤلاء البدو الرُّحل، الذين كانوا يتوغلون تدريجياً في الأرياف المغربية.

فكّر الحكام البربر؛ منذ وصول العرب البدو؛ في استعمال هذه القوة الجديدة في صراعاتهم الداخلية، وهكذا بعيداً عن الانزعاج من دخول الهلاليين، بحث السلطان الزيري عن التحالف معهم لمحاربة أبناء عمومته الحماديين، وقدّم إحدى بناته زوجةً إلى شيخ قبيلة رياح، لكن هذا لم يمنع هؤلاء العرب من إلحاق الهزيمة بالجيش الزيري مرتين الأولى في سنة (1050م) في حيدرة، وفي (1052م) بالقيروان، ولن يطول الوقت لتُحتَل إفريقية وتسقط في الفوضى.

استغل بعض الزعماء العرب الفرصة لاقتطاع ممالك صغيرة المساحة، كان زوالها السريع في مستوى مساحتها الصغيرة ، مثل إمارات قابس و قرطاجة منذ أواخر القرن الحادي عشر. كما حصل الحماديون، بشكل مواز، على مساعدة الأثبج الذين حاربوا أبناء عمومتهم رياح، الذين كانوا بدورهم يحاربون الزيريين.

تجمّع بنو هلال في سنة (1152م)، بعد مرور قرنٍ من وصول أولى المجموعات البدوية إلى المغرب، للتصدي لقوة الموحدين الصاعدة، التي كانت تسيطر على المغرب الأقصى و الجزء الأكبر من المغرب الأوسط، لكن الأوان كان قد فات، فقد سُحقوا في معركة سطيف، من طرف جيش الموحدين، لكن المفارقة أن هذه الهزيمة لم توقف توسعهم في المغرب كما كان متوقعاً، بل غيرت السياق فقط، لأنَّ الموحدين خلفاء عبد المؤمن لم يتردَّدوا في استعمالهم ضمن وحداتهم القتالية، والحادث الأكثر خطورة

بنتائجه، هو أمرهم بإبعاد عدَّة فروعٍ من قبائل رياحٍ و الأثبج و جشم إلى مقاطعاتٍ عديدة بالمغرب الأقصى، مثل الحوْز والسهول الأطلسية، وكان من نتائج ذلك أن عُرِّبت هذه المناطق.

تحصّل الحفصيون، في الوقت الذي انهارت فيه الإمبراطورية الموحدية، على استقلالهم في إفريقية، وضمنوا مساعدة قبيلة الكعوب (Kooûb) إحدى الفروع المهمة لبني سليم . في نفس الفترة أسَّس يغمراسن الزناتي، مملكة بني عبد الواد بتلمسان بدعم من عرب زغبة، وهو نفس التاريخ الذي طرد فيه بنو مرين و هم بربر زناتيون آخر ملوك الموحدين من فاس (1248م)، واعتمدت السلالة الجديدة على أسر عربية رُحِّلَت إلى المغرب من طرف الموحدين، ولأكثر من قرنٍ كان المخزن المريني يعتمد على مجمدين من قبيلة الخلط (Kholt) .

تسببت المجموعات العربية ، في الأماكن الجديدة التي أدخلت إليها ، -دون إرادتها أحيانا ، أو نُصِّبت على رأس سكانٍ مزارعين، لم يستطع نمط معيشتهم مقاومة نهبهم طويلا-، في تدهور الأرياف، لكن ورغم أنهم نهبوا القيروان والمهدية وتونس وأهم مدن إفريقية، ورغم أنَّ ابن خلدون وصفهم بجيشٍ من الجراد المدمر لكل شيءٍ في طريقه، كان بنو هلال و بنو سليم، و فيما بعد بنو معقل أكثر خطرًا بإدخالهم عوامل الفوضى إلى المغرب من نهبهم.

إنها حكايةٌ غريبةٌ، وفي نفس الوقت رائعةٌ، تلك المتمثلة في التحول العرقي والاجتماعي (Ethno-sociologique) لملايين السكّان من البربر ببعض الآلاف من البدو، فعلاً، ودون مبالغةٍ في الأهمية العددية لبني هلال، ومهما كان عدد

الذين يعتقدون أنَّهم ينحدرون منهم، فقد كانوا عند ظهورهم في إفريقية وفي المغرب، بعض العشرات من الآلاف على أقصى تقديرٍ ، ولم ترفع المساهمات المتتالية لبني سليم ثم معقل الذين استقروا في جنوب المغرب العدد إلى أكثر من 100 ألف فردٍ من دمٍ عربيٍ، دخلوا شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر، بينما كان عدد الوندال 80 ألفاً عندما عبروا مضيق جبل طارق للنزول بسواحل إفريقيا في شهر ماي 429م، (وربما ضعف هذا العدد إذا كانت الأرقام المقدمة من طرف فيكتور دي فيتا " Victor de Vita") لا تعني إلا الرجال و الأطفال الذكور)، مِمَّا يعني أنَّ الأهمية العددية للغزوتين متساويةٌ تقريباً، ولكن ماذا بقي من التأثير الوندالي في إفريقيا بعد قرنين من عبورهم؟، لا شيء، فقد أزالت الغزوة البيزنطية كلياً وببساطةٍ الوجود الوندالي، ومن العبث أن نبحث عن المنحدرين منهم أو الذين يدَّعون ذلك .

لنتأمل الآن في نتائج وصول العرب الهلاليين في القرن الحادي عشر: فقد عُرّبت معظم بلاد البربر، و اعتُبِرَت الدول التي قامت في المغرب نفسها دولاً عربيةً، و لا يمكن تفسير هذا التعريب الثقافي و اللغوي العميق بخصوبة بني هلال، ولا بإبادتهم البربر في السهول.

صحيح وجّهت القبائل العربية في البداية ضربةً جديدةً إلى حياة الاستقرار بالتخريب والتهديد الدائم للبلاد المفتوحة، و هكذا تدعم العمل الهدّام للبدو الرحل « البربر الجدد» الزناتيين ، الذين توغّلوا في إفريقيا ونوميديا منذ القرن السادس الميلادي، و قد أُدْمِج هؤلاء البدو الزناتيون الرحل السابقون بالوافدين الجدد بسهولةٍ من طرف الوافدين الجدد، وهكذا كانت الوحدات البدوية العربية التي تتكلم اللغة المقدّسة،

وتفتخر بها كثيراً، بعيدة على أن تذوب ثقافياً في الكتلة البربرية البدوية، بل حدث العكس، حيث جلبتها وتبنّتها.

ساعد تشابه نمط الحياة بين العرب والبربر على الاتحاد فيما بينهم ، فكان مغرياً بالنسبة للبدو الرحل البربر الإدعاء أنَّهم عربٌ، لكسب الاحترام ونيل مكانة الغازي، وقد وصل الأمر أحياناً حتى ادعاء نسب « شريف » بمعنى الانتساب إلى الرسول(صلى الله عليه وسلم). ومما سهّل عملية الاندماج بين العرب والبربر حيلةٌ قانونيةٌ: تعطي لأي شخصٍ أو مجموعةٍ تصبح تابعة لأسرة عربية، الحق في أن تحمل اسم القبيلة السيدة، و كأنَّها عملية تبني جماعية، و قد نجحت هذه العملية لوجود ممارساتٍ مشابهةٍ لدى البربر أنفسهم، و ما قامت به الكاهنة معروفٌ، وهو تبني أسيرها العربي خالد ، كإبن ثالثٍ هو مثال جيد على هذا النهج(35).

إن تداخل المجموعات البربرية والعربية البدوية أو نصف البدوية كان قائماً إلى درجة أن الظاهرة العكسية، أي تبربر فروع عربية أو إدعاءها ذلك سجلت أحيانًا، نذكر كمثال على ذلك ؛ و هذه ليست حالةً منعزلةً ؛ القبيلة العربية لبني محمد التابعة إلى أحد الأخماس(أونوبغي /Ounebgi) الذي ينتمي لكنفدرالية آيت عطّا القوية(36).

انتشر التعريب في البداية وسط القبائل البربرية البدوية، وخاصة الزناتيين، كانت العملية كاملةً حتى أنَّه لم يبق اليوم لهجاتٌ زناتيةٌ بدويةٌ، و تلك التي تتمتع بنوعٍ من الحيوية لا يزال يتكلّمها الزناتيون المستقرون سواء في الجبال (الونشريس) ، أو في واحات الصحراء الشمالية (ميزاب).

عُرِّبت المجموعات البربرية البدوية القوية مثل هوارة بتونس الوسطى والشمالية كليةً قبل القرن الخامس عشر، واندمجت مع بني سليم، كما يشير إلى ذلك مارسي(W.Marçais)، فاكتسبت تونس منذ تلك المرحلة خصائصها الإثنية واللغوية الحالية، إنها أكثر بلدان المغرب تعرباً(37)، أما في المغرب الأوسط فقد أزيح بربر مجموعة صنهاجة؛ الذين هيمنوا لمدةٍ طويلةٍ؛ شيئاً فشيئاً من طرف القبائل الزناتية المُعرَّبَة، أو على وشك أن تُعرَّب، و التي كان من بين ما قامت به، تأسيس مملكة بني عبد الواد بتلمسان، بينما أَبعد زناتيون آخرون – بني مرين – آخر ملوك الموحدين بالمغرب.

كما يوجد عامل تعريبٍ آخر لم يؤخذ بعين الاعتبار من طرف مؤرخي المغرب إلا نادراً، وهو انقراض القبائل التي كانت تلعب دوراً مهماً، فشهدت أعدادها تراجعاً بسبب المعارك المتواصلة أو الحملات البعيدة . لقد وجّهتُ الانتباه منذ بعض السنوات إلى حالة كُتامة من القبائل الصغرى ، المتمركزة جيداً في منطقتها الجبلية، والتي ساهمت -كما أشرنا- في تأسيس الإمبراطورية الفاطمية، وقامت بحملاتٍ في كل الاتجاهات: إفريقية، سجلماسة، المغرب الأقصى ثم صقلية ومصر، كل هذا متقطعا بتمرد غالي الثمن ضد الخليفة الذي نصّبوه، و بالتالي شُتت الكتاميون في الحاميات و أُبيدوا في الحروب ، فاختفوا كما لو كانوا في فخ، وأصبح موطنهم الذي يمتد من جبال البابور حتى الحدود التونسية اليوم مُعرّباً بشكلٍ عميقٍ(38) .

يُضاف إلى ذلك التشابه في نمط العيش بين المجموعات البدوية الذي يُعُّد عاملاً قوياً للتعريب، إضافةً إلى المناورات السياسية للحكام البربر الذين لم يترددوا في استعمال

القوة العسكرية والحركية الكبيرة للوافدين الجدد(العرب) ضد إخوانهم من عرقهم، عن طريق الضغط المزدوج للهجرات الرعوية والأنشطة العسكرية المصحوبة بالنهب والحرائق أو السرقات.

إن انتشار البدو الرحل الذي يتطابق من الآن فصاعدا في معظم أجزاء المغرب مع التعريب البدوي، وهو يمتد باستمرار مفسدا الدول و مزيلا الحياة المستقرة بالسهول، بينما تنحصر المناطق الناطقة بالبربرية، خاصةً في بعض التجمعات الجبلية.

6. المفارقات المغربية:

لكن هذا المخطط كثير التجزئة دقيقٌ في التفاصيل، حيث لا يمكن أن يحدث مثل هذا التفرع الثنائي مع الواقع البشري للمغرب، فالبدو ليسوا كلهم مُعرَّبِين، إذ لا يزال يُوجد جهاتٌ واسعةٌ يجوبها البدو الرُّحل الناطقون بالبربرية، كل الصحراء الوسطى والجنوبية في ثلاثة دولٍ (الجزائر، مالي والنيجر)، تحت رقابتهم، وفي جنوب المغرب تحافظ الكنفدرالية المهمة لآيت عطا المتمركزة حول جبل "صاغرو"، على نصف بداوةٍ بربريةٍ بين المجموعات العربية لتافلالت مهد السلالة الشريفة، و الرقيبات البدو الرحل للصحراءِ الغربية الذين يدّعون الانحدار من قبائل معقل العربية، كما يجب الأخذ بعين الاعتبار البدو الرحل الصغار من مجموعة برابر (Braber) بالأطلس الأوسط، و التي تضم زيان (Zaïan)، بني مغيلد (Beni Mguild) و أيت سيغوشان (Aït Seghouchen) .

البربرية إذا ليست لغةً حكراً على المستقرين فقط، وليست كذلك لغةً جبليةً حصريةً، فجزيرة في مثل انبساط جزيرة جربة، وإقليم المدن الخمس(Pentapolis) المزابية، وواحات توات وقورارة والسهول الفسيحة الساحلية التي يتردد عليها طوارق كال غري (Kel grès) و كال دنيك (Kel Dinnik) و أوليمدان (Oullimiden)، كلها مناطق ناطقة بالبربرية مثلها مثل الكتل الجبلية للمغرب أو جبال القبائل.

كذلك لا يجب تصور أن كل العرب في المغرب بدوٌ رحلٌ، فقبل مدةٍ طويلةٍ من الفترة الفرنسية التي شجعت الزراعة والحياة المستقرة ولو بإقامة الأمن، كانت هناك مجموعة ناطقةٌ بالعربية تعيش منذ قرونٍ حياةً مستقرةً حول المدن و في الأرياف الأكثر عزلةً، ويتجلى ذلك خاصةً في سكان القبائل الصغرى، ومجموع الكتل والجبال المتوسطة الساحلية للجزائر الشرقية و شمال تونس، كل هؤلاء الجبليين وسكان الهضاب مُعرَّبُون منذ زمنٍ طويلٍ، لكن بما أنهم يعتمدون في عيشهم على الغابة وعلى زراعة قريبةٍ من البستنة والزراعة الشجرية، عاشوا دائماً حياةً مستقرةً بالاعتماد على تربية الأبقار، ويمكن ذكر حالاتٍ أخرى كثيرةً مماثلة في الريف الشرقي وفي الونشريس الغربي.

لكن هذا لا يمنع أن المناطق التي يتحدث أهلها بالبربرية اليوم، بالمغرب أو على الأقل في الصحراء تقع كلها بالمناطق الجبلية، و كأنها استغلت كحصون و ملاجئ للسكان الذين تخلوا تدريجيا عن الأرض السهلية للبدو الرحل و النصف رحل مربو الماشية الصغيرة؛ عربا؛ أو معربين. لهذا السبب ظهرت إفريقيا الشمالية في القرن التاسع عشر بوضع عمراني غير عادي: فالجبال و الهضاب ذات التربة الفقيرة التي يشغلها

فلاحون ذات كثافةٍ سكانيةٍ أكثر ارتفاعاً من تلك التي نجدها في السهول والأحواض ذات التربة الخصبة، والتي تجوبها مجموعات صغيرةٌ من الرعاة.

كما نجد أنَّ بعض المجموعات الجبلية غير متكيّفةٍ بشكلٍ جيدٍ مع الحياة الجبلية، مما يدفعنا إلى البحث عن أصلها في أماكن أخرى، فبعض تفاصيل ألبستها، وجهلها بالممارسات الزراعية الجبلية مثل الزراعة في المدرجات بالأطلس التلي، يجعلنا نفكر أن الجبال لم تكن فقط حصوناً قاومت التعريب، بل كانت أيضا ملاجئ حقيقية اجتمع فيها المزارعون الفارون من السهول التي تُركت لنهب البدو الرحل.

وإذا كانت الزراعة في المدرجات مجهولةً لدى مزارعي الجبال التلية (رغم أنها منتشرة في الدول والجزر المتوسطية بكثرة)، فإنها بالعكس مُتحكَّمٌ فيها جيداً، من طرف بربر الأطلس الصحراوي والسلاسل الجبلية المجاورة وهذا منذ القديم[(39)] .

إن البربر الذين يقيمون في جبال التل ، مهما كان أصلهم ، فإن عددهم المرتفعٌ في أرضٍ فقيرةٍ وضيقةٍ اضطرتهم إلى الهجرة، هذه الظاهرة ذات الأهمية في بلاد القبائل ليست حديثةً، فهم مثل سكان الصافوا (les Savoyards) في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، فقد عمل القبائل باعةً متجولين أو تخصَّصُوا في بعض المهن بالمدن، وقد أحدث النمو الديمغرافي الناتج عن الاستعمار وصولًا مكثفاً للجبليين الناطقين بالبربرية إلى السهول المستصلحة و إلى المدن . كان يُمكن لهذه الحركة أن تُؤدي إلى الاستعادة اللغوية والثقافية على حساب اللغة العربية، لكن لم يحدث شيءٌ،

بالعكس كان البربري الذي يصل إلى بلد عربيٍ مهما كان، قبائلي، ريفي، شلحي، شاوي (أوراسي) يتخلى عن لغته و أحياناً عاداته ليجدها عند عودته إلى بلده.

و تكوّن هذه الكتل البربرية مجموع السكان مهما كانوا مُعرَّبين أم غير مُعرَّبين، وما هو أكثر روعة أنها تتميز بالجاهزية والاستعداد، فبقدومهم إلى البلد السهلي أو إلى المدن يبقى جبليو المناطق البربرية – الخزان الديمغرافي الكبير للمغرب- يساهمون في تنمية هذه الظاهرة المتناقضة المتمثلة في تعريب شمال إفريقيا، ولا تتوقف بلدان المغرب عن رؤية نسبة دمها العربي الذي هو ضئيل، ويزداد تقلُّصاً كلَّما عُرِّبوا ثقافياً ولغوياً.

---

* صدر هذا المقال في: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée Année 1983 Volume 35 Numéro 1 ؛ تمت ترجمة المتن دون تعليق أو تعقيب، مع المحافظة على العناوين والهوامش والإحالات من المصدر.

[1]) عولجت هذه النقطة أكثر من مرة ، آخرها من طرف. Ch.E.Dufourg, « Berbère et Ibère médiévale , un problème de rupture » , R.Historique , 488 , oct.-decem. P,293/324 .

تتميز هذه الدراسة بنفوذ البصيرة العالية لزميلنا المرحوم جاء بعده عدة محاولات سواء من طرف ,E.F.Gautier , Le passé de l’Afrique du nord, Payot, Paris, . 1937 ، و من طرف W.Marçais, Comment l’Afrique du nord a été arabisée , *Annales de l’institut d’etude orientale d’Alger* , t., IV, 1938 , p, 1, 2 ; et t.XIV, 1956, p, 6, 17 ; Ch.Courtois , De Rome à l’Islam , R.Afr. t, 86, 1942, pp, 24-55 et suite ؛ و خاصة

G.Marçais, La Berberie musulmane de l'orient au moyen age, ،
Alger , Paris , Aubier ,1946

[2]) رغم ذلك لا يمكننا رسم لوحة موحشة لإفريقية في أواخر العصور القديمة ، و لا المبالغة في تخريب البدو الرحل من البربر مثل الأوسترياني(Austoriani) و الأرزوج(Arzuges) ، و ليفتاي (Levathae) أو لغوانتان(Laguantan) ، الذين سيصبحون لواتة عند الكتاب العرب ، فمزارع الزيتون لم تختف كلية في قرن أو قرنين ، فوجود معاصر الزيت أو الضاغطات المعزولة في المدن المخربة تحمل الدليل على الحفاظ على انتاج الزيت ، نذكر كمثال على ذلك المعصرة الصغيرة لفترة أكيد أنها متأخرة جدا بنيت على بلاط طريق سوفيتلة (Suffetula) ، أو الضاغطة المقامة في أطلال مقر السلطة (Capitole) لتوبربومايوس(ThuburboMajus). كما نعرف الحكاية التي رواها ابن الحكم التي ترجمها Gateau , Alger , Carbonnel 1942, p, 43 , ، إثر حملة ابن سعد ، فقد استغرب هذا الأخير من كثرة الأموال المتداولة عند سكان إفريقية ، فطلب " من أين لكم هذه ؟ " فأخذ إثرها أحد الأفارقة يفتش ، و كأنه يبحث عن شيئ ما ، فوجد أخيرا حبة زيتون و أراها لأبن سعد قائلا " هذه مصدر أموالنا " . بالنسبة لأهمية زراعة الزيتون في إفريقيا الرومانية أنظر ، H.Camps-Fabrer ,
L'olivier et l'huiledansl'Afrique romaine , Alger ,1953

[3]) يحدد Ch. Courtois , Les vandales et l'Afrique , Paris, 1955, p. 350، تاريخ ما قبل 523 أول بروز للبدو الصحراويين في المزاق (Byzacene) . فالجمل ، على الأقل الموجه للركوب ، عرف في إفريقيا في الفترة التي سبقت هذه الغزوات ، بعكس المهري الذي لم يعرف ، و من بين الشواهد التي تدل على ذلك ، إشارة لوحات ألبرتيني(TablettesAlbertini) التي جاء فيها (Via camellos) في قطاع تبسة – تيلبت(Thelepte)، Albertini, Ch. Courtois , L. Leschi Ch. Perret , Ch. Saumagne vandale(fin du 5° siecle) , Paris, A.M.G., et J.P. Miniconi , Tablettes Actes privés de l'epoque 1952).

تعريفة رادس التي من سوء الحظ غير مؤرخة تحدد بخمسة فول(Folles) الضريبة المفروضة على جمّال المرفق بجمل محمّل (C.I.L., VII, 24512.)

[4]) إنه يصعب جدا تحديد النسبة المئوية للبربر المتنصرين بالنسبة لمجموع السكّان لكن المصادر العربية تسمح بتحديد نسبة تقريبية نذكر أن البكري

و هو يتكلم عن إفريقية يقول أنه في الفترة البيزنطية كان البربر يعتنقون المسيحية . هؤلاء البربر المنصرين و المرومنين أخُضعوا للخراج من طرف حسان بن النعمان كخارجين عن الاسلام Description de l'Afrique septentrionale , ,traduction De Slane Alger 1913, p. 74.; Ibn el –Hakam , Conquête de l'Afrique du nord et de l'Espagne , traduction A. Gateau , Alger 1942, p. 77

، ينقل نفس النص بالنسبة .

لفترة الغزوة معلومة ثمينة جدا : « بربر يعتنقون الديانة المسيحية ، أغلبهم من البرانس ، و عدد قليل من البطر » . بقي البطر (لواتة و زناتيين ...) وثنيين (Corripus , Johannide , Passim) جزء منهم هُوّد ،(G.Camps , Reflexions sur l'origine des juifs des regions nord-Sahariennes , Communautés juives des marges sahariennes du . Maghreb, Institut Ben Zvi , Jérusalem , 1982, pp. 57-67 ; mais ils furent aussi les plus rapidement . islamisés

[5]) لا أشاطر كريستيان كورتوا رأيه بشأن العديد من الممالك المورية التي يقترح تحديد موقعها بين موريطانيا الطنجية و طرابلس

:)Les vandales et l'Afrique , pp. 333-348 (مملكة ألتافا(Altava مملكة كابوون ، مملكة الظهر ، مملكة الونشريس ، (Cabaon

)...) . أظن أن هذه الممالك كانت في نفس الوقت أقل عددا ، و أكثر إتساعا ، و بالتالي أحسن

) من المفروض أن يحكم كما سأحول توضيحه في Masunaتنظيما ، و أكثر قوة . فماسونة (
يوم ما، مملكتي ألتافا و الونشريس . نجد رأيا مخالفا كثيرا لما جاء به كريستيان كورتوا عند أ. دي
فورغE. ،
Dufourcq, Berberie et Iberie medievales … » , R.Historique , 1968, pp. 293-324 ,)،أنظر ،Masties بشأن ماستيس(
R.E.A t.,X LVIII, 1944, pp.94-120 ,,. empereur maure inconnu Carcopino (J) ,Un et Id, « Encore Masties l'empereur maure inconnu « *R.Afr.*,t, C, 1956, pp.339-348
) يعطي اهمية مبالغ فيها لهذه الشخصية Ch. E. Dufourcqو في اعتقادي فإن ديفورك (.
.loc cit., p.296

6 (Ch. Diehl , L'Algérie byzantine , Paris, 1898

7 (Ch. Courtois , L. Leschi, Ch. Perrat, Ch. Saumagne et P. Miniconi , TablettesAlbertini , Actesprivés de l'époque vandale (fin du V° siècle) , Paris , A.M.G. 1952.

8) يثير تاريخ تأسيس القيروان و المكان الدقيق لموقعها الأول جدلا . فقد أسست «قيروان أولى » من طرف معاوية بن حديج ، بينما حسب رواية عبد الحكم . غزا عقبة أهم مدن فزان . بنى أبو المهاجر بنفسه مدينة أخرى على بعد ميلين من القيروان التي بناها عقبة ، أنظر H. Abdul-wahab , Sur l'emplacement de Qaïrawan, *R.Tunisienne* , n° 41-42, 1940, pp. 51-53

9) حسب عبد الحكم ، دفع عقبة حصانه حتى غمرت المياه لبانه فصاح " إلهي أشهدك ! يستحيل عليَ التقدم أكثر ، لكن لو أجد ممرا ، أواصل التقدم على جوادي " ترجمة ، A.Gateau , p. 69 . المقولة التي يقصدها هي قول عقبة: « اللهم اشْهد أنّي قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل مَن كفر بك، حتى لا يُعْبَد أحد فيها أحد سواك»

10) لا يجب أن يحدد موقع هذه المعركة حدود مملكة كسيلة . كانت قبيلة أوربة متمركزة في أطراف الجزائر و المغرب ، في جهة تلمسان ، أين أسّر كسيلة و اعتنق الإسلام للمرة الثانية (ابن خلدون ، ترجمة دو صلان ، ج. 1 ، ص. 211 ؛ و حسب فكرة رائعة للمؤرخ Ch.E.Dufourcq, La coexistence des chrétiens et des musulmans dans Al Andalus et dans le Maghreb au X° siecle, *Occident et Orient*, Congrés de Dijon , Paris, 1979, pp. 209-234 ; p. 222, numero 19، كان كسيلة يحمل اسما لاتنيا, Caecilius حرف من طرف العرب.

11) حسب ابن خلدون ، فإن حسّان بن النعمان؛ بعد أن هزم مرة أولى من طرف الكاهنة ، عاد إلى إفريقية بدعم سنة 74 هجري(693 /694م.) لكن أحدثت سياسة الأرض المحروقة التي طبّقتها الملكة الجراوية انشقاقا زاد حسان من تعميقه ... هذه الأحداث تتطلب عدة أشهور ، أو عدة سنوات ، فإن ديفروك(Ch.E. Dufourcq) يظن ؛ بالاعتماد على روايات مأثورة ؛ أن موت الكاهنة تكون بين702 و 703 م. p. 308 ,؛ loc cit, pp. 6/17.

12) يصعب علي الموافقة على رأي ديفورك(Dufourcq , op cit, p. 297) ، الذي يرى أن كل البربر كانوا يكونون عند الغزوة كنفدرالية كبيرة ، تمارس السلطة العليا فيها مرة قبيلة برانسية و أحيانا بطرية .

13) W. Marçais, Comment l'Afrique du Nord a été arabisée, Annales de l'Institut d'Etudes orientales d'Alger , t. IV, 1938, pp. 1-22, ; t. XIV, 1956, pp. 6-17

14) يؤكد ابن خلدون أن البربر ارتدوا عن الاسلام إثنى عشر مرة قبل أن يسلموا نهائيا (ترجمة دو صلان ، ج. 1 ، ص. 215) ، لكن هذه الردات ، التي هي دون شك هي ردّات القادة مثل كسيلة ، تتابعت بوتيرة سريعة جدا ، لأنه حسب نفس الكاتب ، الأسلمة النهائية كانت حصلت عند غزوة إسبانيا . فقد كتب كذلك أنه في سنة 101 هجري (720/719 م. إن باقي البربر

اعتنقوا الإسلام . هذه التأكيدات يجب تخفيفها لأن الأدلة على بقاء المسيحية ، و حتى الأبرشيات بالمغرب لا تنعدم حتى القرن الحادي عشر .

15) الرباط في شكله الأول ، مربع و مدعم بقلاع ، مستنسخا بأمانة نموذج التحصينات البيزنطية) A. Lezine , Le Ribât de Sousse , suivi de notes sur le Ribât de Monastir, Notes et documents , XIV, Tunis , 1956 ; G.Marçais , Les Ribât de Sousse et de Monastir d'après A. Lezine , *les Cahiers de Tunisie* n° 13, 1956 , pp. 127-135 ; يظهر لي إن الدراسة الأكثر دقة حول أربطة الغرب هي تلك التي قام بها مارسي (G.Marçais , Notes sur les Ribât en Berberie Mélanges André Bassset , t, II, 1925, pp. 395-450

16) يعد توسيع اسم الغوانش (Guanches) لكل سكان جزر الكناري ، مبالغة لغوية ، لأنه في الأصل تعني عبارة غوانش (GuancheGuan-chinec/) سكان تنرفي(Tenerife) Espinosa , Historia de nuestra Senora de Candeleria , Tenerife , 1962 ; ، يظهر أن كلمة غوان (Guan) تقابل بربري ، و وان (Wan) تعني " الذي ل ..."

17) Carcopino (J) , Un empereurmaure inconnu , Revue des Etudes anciennes , t. XLVIII, 1944, pp. 94-120 ; Id, Encore Mastios , l'empereurmaure inconnu , R. Africaine , t., C, 1956, pp. 339-348 .

18) C.I.L.VIII, 8379 ; 20216

19) فيما يتعلق بالجدّار ، أنظر ، R.de la Blanchere , Voyage d'étude en MaurétanieCésarienne , Archives des Missions , III° série , t,

X, 1883, pp. 1- 131 ; Gsell (S) , Les monuments antiques de l'Algérie , t. II, pp. 418-427
و خاصة رسالة ف. خدة (Aix , 1974) ، التي توجت عمليات كشف مهمة و حفريات .
P.Grierson ,Mathasuntha or Mastinas a reattribution (20
,Numismatic chronicle ,6° serie , XIX ,1959, pp.119-130
Corripus , Johannide, II, 106 et sq (21

Johanes Biclarensis , édition Mommsen , Monumenta (22
germ. hist. Script. Antiq., XI, 1 ; Ch. Diehl , l'Afrique Byzantine , pp. 327-328

23) عكس ما كان يعتقد دياهل (Diehl) ، لا يظهر أن الماكورتاي(Maccuritae) موريين . حيث تقديمهم زرافة إلى بازليوس(Basileus) يدفعنا إلى تحديد موطنهم في إفريقيا الشرقية عوض موريطانيا القيصرية
A. Mahjoubi , Nouveau témoignage (24
épigraphique , Africa , t. I, 1966, pp. 87-96
P.A. Fevrier , Evolution des formes de l'ecrit en Afrique (25
haut moyen age , du nord à la fin de l'antiquité et durant le
Academia dei lincei , n° 105, 1968, pp. 211-216 ; G. Gualandi
nell Ifriqîya L'area cimeteriale di presenza, la cristina
En-Ngila(Tripoli) ,Felix Ravenna . CV-CVI
1973,pp.257/259

T. Lewicki, Unecommunautéchrétiennedansl'oasis de ([26]
Ouargla au X° siecle , Etudes maghribines et soudanaise , 1976, pp. 79-90

Ch.Courtois ,Grégoire VII et l'Afrique du nord ,Revue ([27]
historique , t,CXCV, 1945, pp.97-122 ;193-226

H.R. Idriss, Fêtes chrétiennescélébrées en Ifriqîya à ([28]
l'époquezeride (IV siècle et l'Hégire – X° siècle après J.C.) , Revue africaine , t. XCVIII, 1954, pp. 221-276

Ch. E. Dufourcq , La coexistence des chrétiens et des ([29]
musulmans dans l'Andalus et dans le Maghrib au X° siecle , occident et orient , Congrés de Dijon , Paris, 1979, pp. 209-234 .

T. Lewicki , Une langue romaneoubliée de l'Afrique du ([30]
nord , Observations d'un arabisant , Rocznikorientalistyczny, t. XVII, 1953, pp. 415-480 ; T. Canard , Les travaux de T. Lewickiconcernant le Maghreb ., *Revue africaine* , t., CIII, 1959, pp. 356-371

Ch. E. ([31]
Dufourcq , loccit ; Id, Berberie et Iberie , loccit

W. Marçais , Comment l'Afrique du nord a ([32]
étéarabisée, Annales de l'Institut d'Etudes orientales d'Alger ,

t. XIV, 1956, pp. 6-17

33) رغم الحذر المبالغ لدى البعض ، يصعب رفض هوية الكتاميين ، الأوكتامي(U)cutamii(؛ C.I.L., VIII,8379 ; 20216 ، و الكوادموسيو(Koidoamousioi) لبطليموس(Ptolémée) الذي احتلوا نفس المواقع عبر القرون . أنظر ، G.Camps , Une frontier inexpliquée , la limite de la Berberie orientale de la Protohistoire au moyen âge , Melangesofferts à Jean Despois , Maghreb et Sahara , 1973, pp. 59-67 ; L. Golvin , Le Magrib central à l'époque des Zirides , Recherches d'Archéologie et d'Histoire . Paris, A.M.G., 1957, pp. 23-26 ; 51 .

34) L. Saada , Un type d'archive . les chansons de geste , Communautés juives des marges sahariennes du Maghreb , Institut Ben Zvi , Jérusalem , 1982, pp. 25-38 ; G.Camps , Réflexions sur l'origine des juifs des régionsnordsahariennes , Ibid, pp. 57-67

35) عمليات التبني و التحالفات هذه مؤكدة في المغرب بمواثيق تاضا (Tata) التي تقيم بين المجموعات روابط عائلية خيالية ، و التي ينظر لها بدرجة من القوة إلى درجة أن هذه القرابة تعتبر حقيقية ، حتى أن الزواج ممنوع بين الطرفين المرتبطين بهذا العقد . هذه القرابة مؤكدة بحركات رمزية ، خاصة ما يتعلق بتبادل الحليب (Colactation)؛ فخلال مأدبة تقارب يستهلك الكسكسي مسقي بحليب المرأة ، في نفس الوقت تتبادل النساء اللواتي ترضعن بين المجموعتين رضّعهم ، أنظر G.Marcy, L'alliance par colactation (tâd'a) chez les berbères ، du Maroc central , Deuxieme congrés de la fédération des Sociétés savantes du Nord , Tlemcen , 1936

[36]) فيما يتعلق بتنظيم السلطة المعقد لكن حكيم جدا عند آيت عطا ، أنظر ، D.M. Dart , Segmentary system and the role of « five fifths « in tribal Morocco , case II , The A Atta, Revue de l'occidentmusulman et de la . Méditerranée, t.3,1967, pp. 65-95 ; M.Morin-Berbe et G.Trecolle , Atta (Ait Atta) , Encyclopédie berbère, éditionprovisoire , Aix , 1975, Cahier n° 14

[37] (W. Marçais , op cit, p, 7

[38] (G. Camps , Unefrontiereinexpliquée…, p.65

[39] (J. Despois , La culture en terrasse en Afrique du nord ,Annales , janvier- Mars 1956, pp. 42-50